المحاضرة الثامنة

فن الخطابة ، وفن المناظرة

أولاً : فن الخطابة الأندلسية

عندما دخل العرب الأندلس فاتحين كانوا بطبيعتهم ميالين إلى الخطابة ، ثم إن عصر الولاة كان عصر اضطراب وحروب وصراع بين العصبيات العربية ، فكان ذلك داعياً إلى ازدهار الخطابة في الأندلس في ذلك العصر ، فكانت الوسيلة الفعالة في إشعال الحروب وتأييد العصبية القبلية عندما تكون الحروب والنزاعات بين العرب العدنانيين والقحطانيين ، وكانت الوسيلة فعالة في الحث على الجهاد وقتال الكفار عندما تكون الحروب ضد نصارى الأندلس.

وكانت الخطابة في تلك الفترة تتميز بالسهولة والوضوح والإيجاز والبعد عن التكلف ؛ لأن الخطباء من الولاة والأمراء والقادة كانوا عرباً مطبوعين على الخطابة والارتجال.

ولكن عندما استقرت الأمور ومال الناس إلى الدعة ضعفت الخطابة الأندلسية ، وتفوق الشعر والنثر الفني عليها ، وإن كانت الخطابة الدينية قد ازدهرت بفضل بعض العلماء الذين كانوا يجيدون الخطابة كالقاضي منذر بن سعيد البلوطي.

وعندما عادت الأندلس إلى عصر الاضطراب والحروب في عهد ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين كانت الملكة والسليقة العربية قد ضعفت ، فلم تزدهر الخطابة من جديد مع وجود دواعي الازدهار، بل دخلها كثير من الصنعة اللفظية، وامتلأت بالسجع المتكلف فضعفت ، ولم يعد لها تأثير يذكر.

وأشهر خطباء الأندلس: طارق بن زياد فاتح الأندلس، والأمير عبد الرحمن الداخل مؤسس الحكم الأموي في الأندلس ، ومنذر بن سعيد البلوطي ، والقاضي عياض ، ولسان الدين بن الخطيب.

وإليك الخطبة المشهورة المنسوبة إلى فاتح الأندلس طارق بن زياد :

خطبة طارق بن زياد فاتح الأندلس

((أيها الناس ، أين المفر، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم .

وإن امتدت لكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة .

وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص فيها متاع النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسي . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بأوفى من حظي .

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان ، والمقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ... ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين.

واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخْذلون)).

معاني بعض الكلمات الغامضة :

الوزر : الملجأ والمكان الذي تحتمون به، والمراد هنا السلاح.

ذهبت ريحكم : ذهبت قوتكم.

المناجزة : سرعة المقاتلة والا شتباك.

نجوه : منجاة. أي إنني معكم في هذا الأمر الخطير.

العقيان : الذهب.

عزبان : جمع أعزب وعازب أي الذي لم يتزوج.

أصهار : جمع صهر، القريب وزوج بنت الرجل أو أخته.

أختان : جمع ختن، وهو أبو امرأتك أو أخوها. فالأحماء من قبل الزوج ، والأختان من قبل الزوجة ، والأصهار تجمعهما.

ثانيا : فن المناظرة

التعريف :

المناظرة : حوار بين شخصين أو فريقين يسعى كل منهما إلى إعلاء وجهة نظره حول موضوع معين والدفاع عنها بشتى الوسائل العلمية والمنطقية واستخدام الأدلة والبراهين على تنوعها محاولا تفنيد رأي الطرف الآخر وبيان الحجج الداعية للمحافظة عليها أو عدم قبولها وهي إما واقعية أو خيالية .

وفن المناظرات يهدف الكاتب من ورائه إلى إظهار مقدرته البيانية وبراعته الأسلوبية في الموضوع الذي يكتب فيه .

وقد أجراها الكتّاب في موضوعات شتى : كالتي جاءت بين السيف والقلم ، وبين مدن الأندلس والمغرب ، وبين قصور الملوك والخلفاء والأمراء ، وبين الورود والزهور .

أهم الخصائص الأسلوبية لفن المناظرات:

١- عذوبة الألفاظ وبعدها عن الخشونة والغرابة:

وهذا يتلاءم مع ما عرف عن الأندلسي من حبه للجمال والتأنق ، فهو يستمد معظم ألفاظه من الطبيعة التي صبغت بألوانها وبهجتها أغلب فنون الأدب وموضوعاتها ، ومن أمثلة ذلك ما قاله أبو مروان الجزيري في مناظرة له عقدها بين النرجس والبهار والبنفسج ويخرج إلى تفضيل بنفسج العامرية على الرياحين الأخرى ، وكتبت هذه المناظرة إلى المنصور بن أبي عامر الذي اشتهر بحبه للأزهار وولعه بها يقول الجزيري على لسان البنفسج :
((وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما والفخر بمناقبهما كل مذهب ، وما منهما إلا ذو فضيلة غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا ، وأعذب من الغمام الذي يسقينا ،مع أني أعطر منهما عطراً وأحمد خبراً ، وأكرم إمتاعاً شاهداً أو غائباً ويانعاً وذائباً)) .

فكانت ألفاظه رقيقة وعباراته رشيقة منتزعة من بيئة الأندلس وطبيعتها الساحرة .

٢- الاقتباس من القرآن الكريم :

لجأ كتّاب المناظرات إلى القرآن الكريم يستمدون منه لدعم آرائهم وحججهم دون الإشارة إلى ذلك، فيأتي الاقتباس في سياق الكلام والحوار من غير تكلف. من ذلك ما جاء في مناظرة أبي بحر صفوان بن إدريس التي خاطب فيها أمير الموحدين عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن ، وفيها يقتبس من القرآن الكريم ضمن حوار أجراه بين مدن الأندلس، كل واحدة تتباهى بما خصها الله به من فضائل وتقول: ((أنا أحق بالأمير وأولى)) . فتفخر قرطبة على باقي المدن الأندلسية وتقول : ((فأقروا لي بالأبّوة ، وانقادوا لي على حكم النبّوة ، وكفوا عن تباريكم ، ذلكم خير لكم عند باريكم)).

وقد كتب ابن برد الأصغر مناظرة أجراها بين السيف والقلم يقول على لسان القلم مبرزاً أهميته ومكانته: ((خير الأقوال الحق ، وأحمد السجايا الصدق ، والأفضل من فضله الله عز وجل في تنزيله مقسماً به لرسوله فقال : " نون والقلم وما يسطرون " ، وقال: " اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم " فجل من مقسم وعز من قسم)). فالكاتب يختار من القرآن الكريم ما يناسب أفكاره، مدعماً أقواله وآراءه ولا تكاد تخلو مناظرة من ذلك في المشرق والأندلس على حد سواء.

٣- تضمين الأمثال والحكم :

ويكون ذلك ضمن الحوار الذي يجريه الكاتب في المناظرة ببراعة فائقة للاستشهاد والاستدلال وإظهار المقدرة في اقتباس هذه الأقوال وإيرادها في سياق الكلام من غير تكلف كما يحاول الكاتب من خلال ذلك إبراز مخزونه الثقافي وغزارة علمه، من أمثلة ذلك قول ابن برد الأصغر على لسان السيف والقلم في مناظرة أجراها

بينهما : ((فقال القلم مخاطباً السيف : من ساء سمعاً ساء إجابة ، ولولا جلاء الصياقل صدأك لأسرعت ذهاباً وعدت مع التراب تراباً فقال السيف : جعجعة رحى لا يتبعها طحن ، وجلجلة رعد لا يليها مزن ، فقال القلم : إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً)).

أما أبو بحر صفوان بن إدريس فيجري مناظرة بين خمس مدن أندلسية وينهي هذه المناظرة بقول تُدمير إذ جعلها تخاطب بلنسية باستنكار وتهكم قائلة : ((عش رجباً تر عجباً ، ما الذي يجديك الروض والزهر؟ أم يفيدك الجدول والنهر، وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر)).

وهذا مثل يضرب لمن أدركه الكبر وغير محاسنه فيحاول أن يعيد لوجهه نضارته بالأصباغ وألوان المساحيق بغية التحسين ولكن دون جدوى. هذه الأمثال ترد في سياق الكلام وتتخللها العظة التي يقدمها الكاتب من خلال الحوار والجدل وتتميز بالإيجاز وقوة التمثيل وهي تدل على سعة اطلاع الكاتب ووفرة مخزونه الثقافي.

٤- الإكثار من صيغ الدعاء :

وترد غالباً في بداية المناظرة وفي نهايتها، من ذلك قول أبي مروان الجزيري في مناظرة له على لسان بنفسج العامرية يبدؤها بعبارات الدعاء والتقدير والاحترام ، كما يستهل أبو بحر صفوان بن إدريس مناظرته بين المدن الأندلسية بدعاء مسجوع للأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبدالمؤمن بن علي يقول:

((مولاي، أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه ، كما ضم على حبك أحناءهم وأحناءه ، وأوصل لك ما شئت من المن والأمان ، كما نظم قلائد فخرك على لَبَّة الدهر نظم الجمان ، ألبست الرعية برود التأمين ؛ فتنافست فيك من نفيس ثمين)).

ويختم مناظرته هذه بالدعاء للأمير بالتوفيق والتأييد والسداد ويقول في نهايتها على طريقة الرسائل: ((ثم السلام الذي يتأنق عبقاً ونشراً، ورحمة الله وبركاته)).

خامساً : الجمع بين الشعر والنثر في مناظرة واحدة :

------------ وهذا الشعر قد يكون من نظم الأديب أو يستشهد من أشعار الآخرين فابن بُرد الأصغر في مناظرته التي أجراها بين السيف والقلم يختم المناظرة بقصيدة مدح لمجاهد العامري، ويدعو فيها إلى التسوية بين الجند والكتّاب يقول:

قد آن للسيف ألا يَفْضُل القـــــلمـــا ** مُذْ سُخِّـــــــــرا لفتى حاز العــــلا بهما

راحا بكفّ أبي الجيش التي خُـلِقَت ** غمامـــةً كل حيـــــــن تـمطر النــّعمــا

لولا طلابي غريب المدح فيــــك لما ** وصفت قبل علاك السيف والقلــما

وفي مناظرته التي كتبها لأبي الوليد بن جهور أمير قرطبة يعقد حواراً بين الأزهار مُقدماً فيها الورد على سائر الرياحين . وقد ضمّن مناظرته بيتاً من شعر الخنساء ، يقول البهار معلناً الولاء والطاعة للورد : ((لا تنظرنّ إلى غضارة نبتي ، ونضارة ورقي ، وانظر إليَّ وقد صرت حدقة باهتة تشير إليه ، وعيناً شاخصةً تندى بكاءً عليه.
لولا كثرة الباكين حولي ** على إخوانهم لقتلت نفسي

سادساً: الاستعانة ببعض أنواع البديع :

وإن كان السجع هو الغالب ، فإنّ إكثارهم من ألوان البديع يمثل لوناً ثقافياً طريفاً يتراءى فيه الترف والتأنق اللفظي الممتع وقد استخدموها باعتدال دون تكلف وإسراف ؛ فتدفقت في كتاباتهم بسهولة وانسياب ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ نهتدي إليها بسهولة عند الاطلاع على ما سبق من المناظرات.

يرى ابن الخطيب في بداية مناظرته بين مالقة الأندلسية وسَلا المغربية أنه لا تجوز المقارنة بين مدينتين غير متماثلتين وأنه فعل ذلك رداً على من طلب منه إجراء هذه المفاضلة ، يقول ((على أنّ التفضلَ يقع بين ما تشابه وتقارب أو تشاكل وتناسب وإلا فمتى يقع التفضيل بين الناس والنسناس والملك والخنّاس وقِرد الجبال وظبيِ الكناس)) .

وأسلوبه يتميز بسهولة الألفاظ وحسن الاختيار والتزام السجع والاستعانة ببعض أنواع البديع الأخرى كالجناس والطباق وعلى الإجمال فأسلوبه شديد الشبه بأسلوب القاضي الفاضل .

ونرى أبا بحر صفوان بن إدريس يستهل مناظرته بين المدن الأندلسية بدعاء مسجوع للأمير فيقول : ((مولاي أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه ، كما ضمّ على حبّك أحناءهم وأحناءه ، وأوصل لك ما شئت من المنّ والأمان، كما نظم قلائد فخرك على لبّة الدهر نظم الجمان، ألبست الرعية برود التأمين ، فتنافست فيك من نفيسٍ ثمين)) .

سابعاً: تجسيم المعاني عن طريق الاستعارة واستخدام التشبيه :

فالتشبيه والاستعارة من أكثر أساليب البيان دلالةً على عقل الأديب وقدرته على الخلق والإبداع ، وكثيراً ما وردت التشابيه والاستعارات والكنايات في الحوار الذي قامت عليه المناظرات بما فيه من إمتاع وجمال وتأثير، وبهذا يبرز التشخيص بوضوح في معظم المناظرات الأندلسية التي اعتمدت على حوارٍ مُتخيّل بين شيئين أو أكثر من خلال إضفاء صفات البشر على الأطراف المتناظرة . لذلك سعى الكاتب إلى التشخيص والخيال فأنطق الأزهار وأنطق المدن والقصور فجاءت هذه المناظرات مفعمة بالحياة والحركة عبّرت عن ميول الكاتب وعواطفه فـ ابن برد الأصغر في مناظرته بين السيف والقلم يجعلُ القلم يتكلّم مخاطباً السيف، يقول : ((إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً)) . ويقول : ((لقد أخذتُ الفضل برمَّته وقُدت الفخر بأزمّته)).

وفي مناظرة أخرى يجري حواراً بين الأزهار، ينتهي هذا الحوار بإعلان الطاعة والولاء للورد فهو يستحق الرئاسة والزعامة عليها جميعاً . فالخيريُّ من شدة إجلاله للورد يكتم أنفاسه ولا يستطيع أن يتنفس نهاراً ، يقول: ((والذي أعطاه الفضل دوني ومدَّ له بالبيعة يميني ما اجترأتُ قطُّ إجلالاً له)) .

المحـــــــــــــــــــــــاضرة التاسعة

من أعلام الشعر الأندلسي

أولاً : ابن زيدون

ولد الشاعر " أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن أحمد بن غالب بن زيد المخزومي " سنة ٣٩٤هـ بالرصافة من ضواحي قرطبة ، وهي الضاحية التي أنشأها "عبد الرحمن الداخل" بقرطبة، واتخذها متنزهًا له ومقرًا لحكمه ، ونقل إليها النباتات والأشجار النادرة ، وشق فيها الجداول البديعة حتى صارت مضرب الأمثال في الروعة والجمال ، وتغنّى بها الكثير من الشعراء.

وينتمي " ابن زيدون " إلى قبيلة " بني مخزوم " العربية ، التي كانت لها مكانة عظيمة في الجاهلية والإسلام ، وعرفت بالفروسية والشجاعة .

وكان والده من فقهاء " قرطبة " وأعلامها المعدودين ، كما كان ضليعًا في علوم اللغة العربية ، بصيرًا بفنون الأدب ، على قدر وافر من الثقافة والعلم .

أما جده لأمه "محمد بن محمد بن إبراهيم بن سعيد القيسي" فكان من العلماء البارزين في عصره ، وكان شديد العناية بالعلوم ، وقد تولى القضاء بمدينة " سالم " ، ثم تولى أحكام الشرطة في قرطبة .

وفي هذا الجو الرائع والطبيعة البديعة الخلابة نشأ ابن زيدون ؛ فتفتحت عيناه على تلك المناظر الساحرة والطبيعة الجميلة، وتشربت روحه بذلك الجمال الساحر، وتفتحت مشاعره ، ونمت ملكاته الشاعرية والأدبية في هذا الجو الرائع البديع.

كفالة الجد :

وما كاد "ابن زيدون" يبلغ الحادية عشرة من عمره حتى مات أبوه ، فتولى جده تربيته ، وكان ذا حزم وصرامة ، وقد انعكس ذلك على أسلوب تربيته لحفيده ، وهو ما جنبه مزالق الانحراف والسقوط التي قد يتعرض لها الأيتام من ذوي الثراء.

واهتم الجد بتربية حفيده وتنشئته تنشئة صحيحة وتعليمه العربية والقرآن والنحو والشعر والأدب ، إلى غير ذلك من العلوم التي يدرسها عادةً الناشئة ، ويقبل عليها الدارسون .

وتهيأت لابن زيدون - منذ الصغر - عوامل التفوق والنبوغ ، فقد كان ينتمي إلى أسرة واسعة الثراء ، ويتمتع بالرعاية الواعية من جده وأصدقاء أبيه ، ويعيش في مستوى اجتماعي وثقافي رفيع ، فضلاً عما حباه الله به من ذكاء ونبوغ ، وما فطره عليه من حب للعلم والشعر وفنون الأدب .

ثقافته ، وصلته بأعلام عصره :

ومما لا شك فيه أن "ابن زيدون" تلقى ثقافته الواسعة وحصيلته اللغوية والأدبية على عدد كبير من علماء عصره وأعلام الفكر والأدب في الأندلس ، في مقدمتهم أبوه ، وجده ، ومنهم كذلك :

أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي المتوفى سنة (٤٣٣ هـ) وكان رجلاً متدينًا ، وافر الحظ من العلم والعقيدة ، سالكًا فيها طريق أهل السنة ، له باع كبير في العربية ورواية الشعر.

كما اتصل ابن زيدون بكثير من أعلام عصره وأدبائه المشاهير ، فتوطدت علاقته - في سن مبكرة - بأبي الوليد بن جَهْور الذي كان قد ولي العهد ثم صار حاكمًا ، وكان حافظًا للقرآن الكريم مجيدًا للتلاوة ، يهتم بسماع العلم من الشيوخ والرواية عنهم ، وقد امتدت هذه الصداقة بينهما حتى جاوز الخمسين ، وتوثقت علاقته كذلك بأبي بكر بن ذَكْوان الذي ولي منصب الوزارة ، وعرف بالعلم والعفة والفضل ، ثم تولى القضاء فكان مثالا للحزم والعدل ، فأظهر الحق ونصر المظلوم ، وردع الظالم.

ابن زيدون وزيرًا :

كان ابن زيدون من الصفوة المرموقة من شباب قرطبة ؛ ومن ثم فقد كان من الطبيعي أن يشارك في سير الأحداث التي تمر بها.

وقد ساهم ابن زيدون بدور رئيس في إلغاء الخلافة الأموية بقرطبة ، كما شارك في تأسيس حكومة جَهْوَرِيّة بزعامة (ابن جهور) ، وإن كان لم يشارك في ذلك بالسيف والقتال ، وإنما كان له دور رئيس في توجيه السياسة وتحريك الجماهير ، وذلك باعتباره شاعرًا ذائع الصيت ، وأحد أعلام "قرطبة" ومن أبرز أدبائها المعروفين ، فسخر جاهه وثراءه وبيانه في التأثير في الجماهير ، وتوجيه الرأي العام وتحريك الناس نحو الوجهة التي يريدها.

وحظي "ابن زيدون" بمنصب الوزارة في دولة (ابن جهور) واعتمد عليه الحاكم الجديد في السفارة بينه وبين الملوك المجاورين، إلا أن "ابن زيدون" لم يقنع بأن يكون ظلا للحاكم، واستغل أعداء الشاعر ومنافسوه هذا الغرور منه وميله إلى التحرر والتهور فأوغروا عليه صدر صديقه القديم ،

ونجحوا في الوقيعة بينهما ، حتى انتهت العلاقة بين الشاعر والأمير إلى مصيرها المحتوم.

ابن زيدون وولادة بنت المستكفي :

كان ابن زيدون شاعرًا مبدعًا مرهف الإحساس ، وقد حركت هذه الشاعرية فيه زهرة من زهرات البيت الأموي ، وابنة أحد الخلفاء الأمويين، وهي "ولادة بنت المستكفي" ، وكانت شاعرة أديبة ، جميلة الشكل ، شريفة الأصل ، عريقة الحسب ، وقد وصفت بأنها " نادرة زمانها ظرفًا وحسنًا وأدبًا " .

وأثنى عليها كثير من معاصريها من الأدباء والشعراء ، وأجمعوا على فصاحتها ونباهتها ، وسرعة بديهتها ، وموهبتها الشعرية الفائقة ، فعرفت بأنها ((أديبة شاعرة جزلة القول ، مطبوعة الشعر ، تساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء)) .

وبعد سقوط الخلافة الأموية في " الأندلس " فتحت ولادة أبواب قصرها للأدباء والشعراء والعظماء ، وجعلت منه منتدى أدبيًا ، وصالونًا ثقافيًا ، فتهافت على ندوتها الشعراء والوزراء مأخوذين ببيانها الساحر وعلمها الغزير .

وكان "ابن زيدون" واحدًا من أبرز الأدباء والشعراء الذين ارتادوا ندوتها ، وتنافسوا في التودد إليها ، ومنهم :

أبو عبد الله بن القلاس ، وأبو عامر بن عبدوس ؛ اللذان كانا من أشد منافسي ابن زيدون في حبها ، وقد هجاهما ابن زيدون بقصائد لاذعة ، فانسحب ابن القلاس ولكن ابن عبدوس بالغ في التودد إليها ، وأرسل لها برسالة يستميلها إليه ، فلما علم "ابن زيدون" كتب إليه رسالة على لسان "ولادة" وهي المعروفة بالرسالة الهزلية ، التي سخر منه فيها ، وجعله أضحوكة على كل لسان ، وهو ما أثار حفيظته على "ابن زيدون"؛ فصرف جهده إلى تأليب الأمير عليه حتى

سجنه ، وأصبح الطريق خاليًا أمام "ابن عبدوس" ليسترد مودة "ولادة ".

فِراره من السجن :

فشلت توسلات "ابن زيدون" ورسائله في استعطاف الأمير حتى تمكن من الفرار من سجنه إلى إشبيلية ، وكتب إلى ولادة بقصيدته النونية الشهيرة التي مطلعها :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وما لبث الأمير أن عفا عنه ، فعاد إلى "قرطبة" وبالغ في التودد إلى "ولادة"، ولكن العلاقة بينهما لم تعد أبدًا إلى سالف ما كانت عليه من قبل، وإن ظل ابن زيدون يذكرها في أشعاره ، ويردد اسمها طوال حياته في قصائده .

ولم تمض بضعة أشهر حتى توفي الأمير ، وتولى ابنه " أبو الوليد بن جهور " صديق الشاعر الحميم ، فبدأت صفحة جديدة من حياة الشاعر ، ينعم فيها بالحرية والحظوة والمكانة الرفيعة .

ولكن خصوم الشاعر ومنافسيه لم يكفوا عن ملاحقته بالوشايات والفتن والدسائس حتى اضطر الشاعر ـ في النهاية ـ إلى مغادرة قرطبة إلى إشبيلية وأحسن المعتضد بن عباد إليه وقربه ،

وجعله من خواصه وجلسائه ، وأكرمه وغمره بحفاوته وبره .

ابن زيدون في إشبيلية :

استطاع "ابن زيدون" بما حباه الله من ذكاء ونبوغ أن يأخذ مكانة بارزة في بلاط "المعتضد"، حتى أصبح المستشار الأول للأمير، وعهد إليه "المعتضد"، بالسفارة بينه وبين أمراء الطوائف في الأمور الجليلة والسفارات المهمة ، ثم جعله كبيرًا لوزرائه ، ولكن "ابن زيدون" كان يتطلع إلى أن يتقلد الكتابة وهي من أهم مناصب الدولة وأخطرها ، وظل يسعى للفوز بهذا المنصب ولا يألو جهدًا في إزاحة كل من يعترض طريقه إليه حتى استطاع أن يظفر بهذا المنصب الجليل ، وأصبح بذلك يجمع في يديه أهم مناصب الدولة وأخطرها وأصبحت معظم مقاليد الأمور في يده.

وقضى "ابن زيدون" عشرين عامًا في بلاط المعتضد ، بلغ فيها أعلى مكانة ، وجمع بين أهم المناصب وأخطرها.

فلما توفي "المعتضد" تولى الحكم من بعده ابنه المعتمد بن عباد ، وكانت تربطه بابن زيدون أوثق صلات المودة والألفة والصداقة ، وكان مفتونًا به متتلمذًا عليه طوال عشرين عامًا ، وكان بينهما كثير

من المطارحات الشعرية العذبة التي تكشف عن ود غامر وصداقة وطيدة.

المؤامرة على ابن زيدون ، ووفاته :

حاول أعداء الشاعر ومنافسوه أن يوقعوا بينه وبين الأمير الجديد ، وظنوا أن الفرصة قد سنحت لهم بعدما تولى "المعتمد" العرش خلفًا لأبيه ، فدسوا إليه قصائد يغرونه بالفتك بالشاعر ، ويدعون أنه فرح بموت "المعتضد"، ولكن الأمير أدرك المؤامرة ، فزجرهم وعنفهم ، ووقّع على الرقعة بأبيات جاء فيها :

كذبتْ مناكم ، صرّحوا أو جمجموا الديـــن أمتـــن ، والمروءة أكرم

خنتم ، ورمتم أن أخون ، وإنـــما حاولتـــمُ أن يستخـــــــفَّ يلملمُ

وكان الشاعر عند ظن أميره به ، فبذل جهده في خدمته ، وأخلص له ، فكان خير عون له في فتح "قرطبة"، ثم أرسله المعتمد إلى "إشبيلية" على رأس جيشه لإخماد الفتنة التي ثارت بها ، وكان "ابن زيدون" قد أصابه المرض وأوهنته الشيخوخة ، فما لبث أن توفي بعد أن أتمّ مهمته في أول رجب عام ٤٦٣ هـ عن عمر بلغ نحو ثمانية وستين عامًا.

أهم أغراض ابن زيدون الشعرية :

أولاً : الغزل :

يحتل شعر الغزل نحو ثلث ديوان "ابن زيدون"، وهو في قصائد المدح يبدأ بمقدمات غزلية دقيقة ، ويتميز غزله بالعذوبة والرقة والعاطفة الجياشة القوية والمعاني المبتكرة والمشاعر الدافقة التي لا نكاد نجد لها مثيلا عند غيره من الشعراء إلا المنقطعين للغزل وحده من أمثال "عمر بن أبي ربيعة"، "وجميل بن مَعْمَر"، و"العبّاس ابن الأحنف" في المشرق العربي .

ومن عيون شعره في الغزل تلك القصيدة الرائعة الخالدة التي كتبها بعد فراره من سجنه بقرطبة إلى "إشبيلية"، ولكن قلبه جذبه إلى محبوبته بقرطبة فأرسل إليها بتلك الدرة الفريدة (النونية) التي يقول فيها :

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيْلاً مِنْ تَدانِيْنا
وَنَابَ عَنْ طِيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيْنَا

ألاّ وقد حانَ صُبح البَيْنِ صَبَّحنا
حينٌ فقام بنا للحِين ناعِينا

مَن مُبلغ المُبْلِسينا بانتزاحِهم
حُزناً مع الدهر لا يَبلى ويُبلينا

أن الزمان الذي ما زال يُضحكنا
أنسًا بقربهمُ قد عاد يُبكينا

غِيظَ العِدى من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نَغُصَّ فقال الدهر : آمينا

فانحلَّ ما كان معقودًا بأنفسنا
وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاءَ لكم
رأيًا ولم نتقلد غيرَه دينا

ما حقنا أن تُقروا عينَ ذي حسد
بنا ، ولا أن تسروا كاشحًا فينا

كنا نرى اليأس تُسلينا عوارضُه
وقد يئسنا فما لليأس يُغرينا

بِنتم وبنا فما ابتلت جوانحُنا
شوقًا إليكم ولا جفت مآقينا

نكاد حين تُناجيكم ضمائرُنا
يَقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا

حالت لفقدكمُ أيامنا فَغَدَتْ
سُودًا وكانت بكم بيضًا لياليا

إذ جانب العيش طَلْقٌ من تألُّفنا
ومورِدُ اللهو صافٍ من تصافينا

وإذ هَصَرْنا غُصون الوصل دانية
قطوفُها فجنينا منه ما شِينا

ليسقِ عهدكمُ عهد السرور فما
كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

لا تحسبوا نَأْيكم عنا يُغيِّرنا
أن طالما غيَّر النأي المحبينا

والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

إلى أن ختمها بقوله

أَوْلِي وفاءً وإن لم تَبْذُلِي صِلَةً
فالطيفُ يُقْنِعُنا والذِّكْرُ يَكْفِينا

وفي الجوابِ متاعٌ لو شفعتِ به
بِيْضَ الأيادي التي ما زلْتِ تُولِينا

عليكِ مِني سلامُ اللهِ ما بَقِيَتْ
صَبَابةٌ منكِ نُخْفِيها فَتُخفينا

ثانيًا : الوصف :

انطبع شعر "ابن زيدون" بالجمال والرّقة ، وانعكست آثار الطبيعة الخلابة في شعره ، فجاء وصفه للطبيعة ينضح بالخيال ، ويفيض بالعاطفة المشبوبة والمشاعر الجياشة ، وامتزج سحر الطبيعة بلوعة الحب وذكريات الهوى ، فكان وصفه مزيجًا عبقريًا من الصور الجميلة والمشاعر الدافقة ، ومن ذلك قوله :

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا

والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال في أصائله

كأنه رق لي فاعتلّ إشفاقا

والروض عن مائه الفضي مبتسم

كما شققت عن اللبات أطواقا

نلهو بما يستميل العين من زهر

جال الندى فيه حتى مال أعناقا

كأن أعينه إذ عاينت أرقي

بكت لما بي فجال الدمع رقراقا

ورد تألق في ضاحي منابته

فازداد منه الضحى في العين إشراقا

ثالثا : الإخوانيات الشعرية :

كان "ابن زيدون" شاعرًا أصيلا متمكنا في شتى ضروب الشعر ومختلف أغراضه ، وكان شعره يتميز بالصدق والحرارة والبعد عن التكلف ، كما كان يميل إلى التجديد في المعاني ، وابتكار الصور الجديدة ، والاعتماد على الخيال المجنح ؛ ولذا فقد حظي فن الإخوانيات عنده بنصيب وافر من هذا التجديد وتلك العاطفة ، ومن ذلك مناجاته الرقيقة لصديقه الوفي " أبي القاسم ":

يا أبا القاسم الذي كان ردائي وظهيري من الزمان وذخري

هل لخالي زماننا من رجوع أم لماضي زماننا من مكرِّ

أين أيامنا ، وأين ليالٍ كرياض لبسنَ آفاق زهر ؟

المحـــــــــــــــــــاضرة العاشرة

من أعلام الشعر الأندلسي

المعتمد بن عباد

هو ابن المعتضد العبادي صاحب إشبيلية. أصبح وريث العرش بعد موت أخيه البكر إسماعيل ، وجلس فيه سنة ٤٦١ هـ ، واتخذ له وزيراً ابن عمار الشاعر. وكان هو نفسه شاعراً وكاتباً ، فتوافد إليه الأدباء والعلماء فأكرم مثواهم ، امتلك قرطبة واتسع سلطانه حتى بلغ مرسية.

وكان بنو عبَاد أمراء إشبيلية أهل حنكة سياسية ودهاء وذكاء ، وكانت لهم سياستهم الخاصة في غمار تلك الأحداث التي ألمت بالعصر ، واستطاعوا أن يوسّعوا سلطانهم ، حتى غدت إشبيلية أقوى الإمارات الأندلسية .

وقد واجه المعتمد أحداث عصره في صبر وقوة وإقدام ، والمؤرخون يتحدثون عن صبره وقوته في خوض المعارك ، ويثنون على شجاعته وثباته واستبساله. وبدأ ملك بني عبَاد بالقاضي ابن عبَاد المؤسس ثم ابنه المعتضد ثم تلاه المعتمد.

وكان للأحداث الكبرى التي مرت بالمعتمد ، والحروب الطاحنة التي اشتدت أوزارها واستعر لهيبها في الأندلس (في الزّلاقة ، وقرطبة ، ورندة ، والرُّها ، وغيرها) ، تلك الحروب كان لها آثارها البعيدة وصداها العميق في نفس المعتمد ، وكانت كذلك ينبوع فخره في شعره .

لم يصور المعتمد تلك الأحداث في شعره كشاعر سمع بها ولم يكن شاهدها ، أو كشاعر وقف على ربوة يرقبها من بعيد ، وإنما كان المعتمد فارساً شجاعاً ، شديد الاعتزاز بالنفس ، يتقدم كتائبه ، ويجول في ميادين القتال في بسالة وإقدام شديد الثقة بصبره وقوة عزيمته ، ثم التوت به الحال ، وقلب الدهر له ظهر المجن فانهزم ، ونزل من قصره إلى أَسره ، وكان هذا أقوى الآثار عمقاً في نفسه ؛ فقد اضطر إلى مفارقة وطنه وأهله واقتيد الى" أغمات" بالمغرب ، وفي أغمات عاش في السجن بضع سنين ، عاش عيشة سئم فيها العنت والظلم ولقي فيها الذلة والمهانة ، فجاء شعره في هذه المحنة مصوراً لما يعتلج في صدره من الهم والغدر ، يشكو بثَّه وحزنه ، وحسرته على مصيره .

ولم يكن العصر الذي عاش فيه المعتمد من العصور السعيدة في التاريخ وانما كان عصراً حافلاً بالأحداث الفاجعة والنكبات الصادعة.

ومن صفاته التي تحمد له رغم بعض العيوب والهفوات : أسرته العريقة ، ومواقفه المشرقة ، ومروءته وأريحيته ، ومواهبه الشعرية ، وملكاته الفنية التي جعلته يستأهل الإعجاب .

يقول عنه المقّري في نفح الطيب : ((وأخبار المعتمد بن عبَاد وما رآه من المُلك والعز ، وما قاساه في الأسر من الضيق في كل حاضر وباد رحمه الله وغفر له)) .

أسرته ، وسياسته :

المعتمد بن عباد فرع من دوحة بني عباد ، أسرة عربية من أعرق الأسر وأقواها وأثراها، نزحت من العريش إلى الأندلس فاستقرت في غربية حيفا ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى إشبيلية فاستوطنوها ، وكانوا فيها أهل النباهة والشأن ، وكان المعتمد أقوى هؤلاء الأمراء المتوثبين، وأعظم هؤلاء الملوك المسمّيَن بملوك الطوائف ، كان جبارا ، له سياسة أعيت على أنداده من ملوك الأندلس ، وقد اتجهت مطامعه إلى غزو جيرانه ولا سيما البربر في الجنوب والجنوب الشرقي من شبه الجزيرة .

محنة المعتمد :

قضى المرابطون على ملوك الطوائف بالأندلس ، وأزالوا عروشهم ولكن لم يظفر واحد منهم باهتمام المؤرخين كما ظفر "المعتمد بن عباد " الملك الذي توافرت له أسباب السعادة فاستطاع أن يحبَ ويحارب ويقول الشعر ، وأن يسامر الأدباء ويجالس العلماء ، ويعابث الماجنين ويشملهم جميعاً بوفرة من حالة وسعة صدره .

تكدست حوله أسباب الشقاء ؛ فأشفق عليه أصدقاؤه وأعداؤه على حد سواء ، لقد ذل بعد عزة ، وأسر مع أبنائه وجيرانه ، وصفد بالأغلال على مشهد من أمته وانتزع من قصره بالأندلس ، وسيق إلى سجنه بأفريقية ، والناس على طول الطريق شهود وهناك يمرض ، فيعوزه الطبيب ، ويجوع فيعوزه الغذاء ، ويعري فلا يجد الغطاء.

سقوط عرشه ، وأسْره :

أذن يوسف بن تاشفين لجيوش المرابطين بإسقاط عرش المعتمد ؛ فاندفعت تلك الجيوش نحو (رندة) ذات الحصون فاستولوا عليها وقتلوا ولده (الراضي) ثم اندفعوا نحو "قرطبة" ففتحوها وقتلوا ابنه (المأمون) وتقدمت قواتهم فأخضعت إشبيلية في الثاني والعشرين من رجب سنة ٤٨٤ه ، وهاجمت فرقة منها في صبيحة ذلك اليوم قصر المعتمد فتسورته ، فانبرى لها يقود حامية مقره وليس عليه غير قميصه فردها على أعقابها .

وفي أصيل ذلك اليوم داهمت القصر جموع من الأندلسيين والمرابطين لا قبل للمعتمد بها فاستسلم فقبض عليه ، وأحكم وثاقه وأودع مع أفراد أسرته سفينة سارت في الوادي الكبير والناس على الشاطئين يعتبرون و يبكون ، ثم عبر بهم المضيق إلى أفريقية ، وسيق الى (أغمات) حيث ترك في سجنها ومعه زوجته الرميكية – أم الربيع وبناته يقاسمنه الآلام تارة ويحركن ساكن أشجانه أخرى!!

وفاته ، ورثاؤه ورثاء ملكه :

وتمادى "المرابطون" في تعذيب هذا الأسير عندما ثار من تبقى من أولاده ، واتخذوا ذلك وسيلة لإرغامهم على الطاعة والاستسلام وتركوه في السجن أربع سنوات يعاني مع أسرته العذاب المهين حتى وافاه قدره ومات سنة ٤٨٨ هـ ، ودفن رحمه الله بأغمات.

ومن الشعر الذي قيل في هذه الحال : قول الشاعر أبو بكر بن اللبانَّة :

تبكي السماء بدمع رائحٍ غـادي على البهاليل من أبناء عبَّـــادَ
على الجبال التي هدَّت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد

ومن هذا الشعر أيضا : قول الشاعر ابن عبد الصمَد في قصيدة زادت على مائة بيت، أنشدها على قبره في أول عام مر على مماته وهي حافلة بمعاني التفجع على الملك الشاعر وملكه الزائل ومنها قوله :

ملك الملوك أسامع فأنـــــادي أم قد عدتك عن السمـــاع عَواد
عهدي بملكك وهو طلقٌ ضاحكٌ متهللُ الصفحـــات للقصَّـــاد
والأمر أمرك ، والزمـــــان مبشِّرٌ بممالكٍ قد أذعنت وبـــــلادِ

شاعريته :

كان المعتمد وثيق الشبه بأبيه ، لا يختلف عنه في شيء إلا أنه كان دون أبيه شدة وعنفاً ، وكان صورة لأمير عظيم من أمراء الفروسية ، امتاز بالبأس والشجاعة واتصف بالسخاء والجود وحسن الصنيع ، وكلاهما اشتهر بالقريض ، وحسن النظم ، والاهتمام بالأدب وأهله .

ولعل أهم الأسباب والعوامل التي أذكت شاعريةَ المعتمد هي :

أنه عاش في بيئة تتصف بالجود والسخاء.

- أنه ابن ملك عاش في بيت أدب وعلم.
- ذل المحنة.

- **امتزاجه بالطبيعة.**
- **كان أقوى الأمراء المتوثبين.**
- **اشتبك في حروب طاحنة مع أمراء غرناطة ومالقة وغيرهما فانتصر عليهم جميعاً.**
- **كان أعظم ملوك الطوائف جميعا.**
- **كان زمنه مشهوراً بالفنون والآداب ، وأيامه موصوفة باخضرار الجناب.**
- **جبروت الملك وفروسيته .**
- **أنه ابن ملك ، فلم يعرف التكسب.**
- **شجعه أبوه على قرض الشعر.**
- **أغرم المعتمد بالشعر فكان يكتبه ويستميل الشعراء ويجالس الأدباء.**

مميزات شعره :

تميز شعر المعتمد بن عباد بالميزات الآتية :

- **الوجدانية الشخصية (فلم يكن شاعراً متكسبا ، ولا متخذاً من الشعر حرفة وصناعة ، ولكنه يستعمله أداة للتعبير عن مشاعره ، وهو بذلك يشبه أبا فراس الحمداني في مآسيه وأسره أيضاً .**
- **شعره قريب المأخذ سهل ليس فيه تصنّع أو تكلّف.**
- **شعره ينبض بالعاطفة القوية.**
- **كان شعره صوت الألم الشاكي في رصانة وإباء .**

وقد شهد له كبار النقاد والمؤرخين كابن بسام في الذخيرة بجودة شعره ومنزلته الشعرية.

وقد أكثر المعتمد من قرض الشعر ، وكان شعره صورةً للحياة التي عاشها ، في عهد الإمارة والمُلك ، حياة الترف والجلال معاً ؛ يقول :

ولقد شربتُ الرَاح يسطعُ نورُها
والليلُ قد مدَ الظلام رداءَ

حتى تبَدَّى البدرُ في جوزائه
ملكاً تناهى بهجةً وبهاء

لماَ أرادَ تنزهاً في غربهِ
جعل المظلَة فوقه الجوزاءَ

موضوعات شعره:

إن الدارس لديوان المعتمد بن عباد يلحظ أنه نظم في أغراض متعددة : كالغزل ، والوصف والعتاب ، وبعض الخمريات ، والفخر ، والرثاء ، والحنين ، والتهكم.

ولكن محنة الأسر أو شعر الشكوى الذي قاله حظي بنصيب الأسد من ذلك الشعر.

وسوف نأتي على بعض هذه الموضوعات ؛ لنتعرف عن قرب على شعره :

١- الغزل :

أما الغزل فكان أهم أغراضه الشعرية في عهد الإمارة والملك قبل أن يقلب الدهر له ظهر المجن، ويتسم غزله بأنه " حقيقي، تحدث فيه عن عواطفه، في حال الرضا والغضب، والقرب والبعد، وأظهر ما فيه أنه غير محصور بواحدة، بل هنَ جوارٍ وزوجات". ومن أشهرهن سِحْر، ووداد، وقمر، وزوجته اعتماد أم الربيع ؛ ويقول في زوجته اعتماد أم الربيع :

تظن بنا أُم الربيـــــــــع سآمــــــــــةً	ألا عفى الرحمنُ ذنبـــــــــــــــا تواقعـــه
أأُهجر ظبياً في ضلوعي كناسهُ	وبدرَ تمـــــام في جفوني مطالـــــــــــعه
وروضة حسن أجتنيها وبـــــاردا	من الظَلم لم تُحظر عليَّ شرائـــــعـــه
إذاً عدمت كفي نـوالاً تُــفيضُــه	على معتــــفيها أو عـــــــدوَاً تُـــقـــارعه

وغزل ابن عباد الذي لا يقتصر على محبوبة واحدة ، مما يدل على أن صاحبه مغرم بالجمال ، يعجب به أينما كان ، لا كغيره من المحبين الذين لا يرون الجمال مثلاً إلاَ في واحدة ، وليس حبه حباً عذرياً ، يقنع من الحب بالذكرى وطيف الخيال ، فلا ترى في غزله صوفية أو شجنا ، ولكنه غزل دائم الحديث عن لذة المتعة بالجمال .

٢- الخمريات :

كان شعر المعتمد صورة لحياة الترف والجلال التي عاشها في عهد الإمارة والمُلك ؛ تراها ممثلة في قوله :

ولقد شربتُ الراح يسطعُ نورها والليـــلُ قد مدّ الظـــــلام رداء

حتى تبـدَّى البــدرُ في جوزائـــه ملكـــاً تنـــاهى بهجـــةً وبهـــاء

لمَـا أراد تـــنـــــــزُّهاً في غـــربـــــهِ جعل المظلّة فوقـــــــه الجوزاءَ

وتناهضت زهر النجـــــــوم يحفُّه لألاؤُها ، فاستـــــكمل الآلاءَ

وحكيتُه في الأرض بين مـواكبٍ وكواكب جمعت سناً وسنـــاء

فحياته بين راحٍ يسطع نورها في ظلمة الليل ، تحت أضواء بدر يملأ الكون بهاءً وبهجة ، تحف به النجوم المتلألئة ، كما تحف الرعية بمليكها ، وهنا يعقد الموازنة بين نفسه في الأرض فهو في ملكه بين مواكب من الجند أو بين كواكب أتراب ، يتحدثن بأعذب موسيقى ، وأرقّ غناء . فهذه الأبيات صورة من ليالي السعد والأنس التي كان المعتمد يحياها في عنفوان ملكه ، حين كانت الدنيا مقبلة عليه .

٣- الشعر السياسي :

وكان للأحداث السياسية صداها في شعره ، ولعلَ أعظم تلك الأحداث استيلاؤه على قرطبة ، وهو حادث ملأ نفسه زهواً ، وربما أفعم قلبه بالأمل في أن يوحّد الأندلس العربية تحت رايته ويقيم في البلاد دولة بني عبَّاد ، ولا جرم في ذلك فقد كانت قرطبة عاصمة الأندلس كلها ، يوم الحكم العربي مزدهرة بتلك الديار ويبين المعتمد على هذا الزهو ، وتلك الأمل ، في قوله :

مَن للمـلوك بشـــأو الأصيـــدِ البطلِ هيهـــات ؛ جاءتكُم مهديـــةُ الدُّولِ

خطبتُ قرطبـــةَ الحسناءَ إذ مَنَـــعَت مَنْ جَاء يَخْطُبُـــــها بالبيض والأسَلِ

وكم غدت عاطلاً حتى عَرَضتُ لها فأصبحت في سَريّ الحَلي والحُلِ

عُرسُ الملوك لنـــا في قصرها عُرُسُ كل الملـــــــــوك بها في مأتم الوجَلِ

فـــــراقبـــوا عن قريب لا أبـــــا لكُـمُ هجومَ ليثٍ بدرعِ البـــــــأس مشتَمِلِ

لكن نشوة النصر بضم قرطبة لم تنسه عشقه المتمثل في إشبيلية وتجربته الأدبية فيها ، وقد كان ابن عمار كما ذكرنا أحد ندمائه والمقربين منه دائمًا ؛ بل المشاركين معه في هذه التجربة أيضًا ، فنحن نجد الإجازة – وهي أن يقول الشاعر شطر البيت فيكمل صديقه شطره الآخر مرتجلاً – أمرًا شائعًا بين الأمير الشاعر وبين ندمائه وحاشيته وخاصة ابن عمار الآنف الذكر .

ففي إشبيلية يمتزج المعتمد بهذه المدينة امتزاج الأم بولدها ، ويتفاعل مع كل ما يحيط به فيها ، مشاركًا لنديمه ، رافعًا كلَفة الإمارة بينهما ، فمن ذلك " ما روي : أن المعتمد بن عباد ركب في يوم قاصداً الجامع ، والوزير أبو بكر بن عمار يسايره ، فسمع أذان المؤذن ، فقال المعتمد :

هذا المؤذنُ قد بدا بأذانه

فقال ابن عمار : يرجو بذاك العفوَ من رحمانهِ

فقال المعتمد : طُوبى له من شاهدٍ بحقيقةٍ

فقال ابن عمار : إن كان عَقدُ ضميرهِ كلسانه"

لكن حياة الإنسان لا تستقيم على حال ، والسعادة لا يمكن أن يتحصل عليها الإنسان دائمًا – ولو كان أميرا – في ظل "حياة أرضية" متقلبة مضطربة غير مطردة ولو حاول الإنسان بكل ما أوتي من جهد أن يطوعها لأمره ، ويجبرها على ذلك ببنانه لفشل ، وهو مع هذا مقود وإن ظن أنه القائدُ !! .

ولم يمكن المعتمد بدعًا من هذه السنّة الكونية ، ففي ظل أندلس متشرذمة لإحدى وعشرين إمارة ضعيفة العدة والعتاد لا يمكن أن تقف أمام أناس بدءوا في حرب "الاسترداد" من هؤلاء الغارقين في ملذاتهم والمنتفخين بأوصاف كاذبة هي بريئة منهم ومن سلوكاتهم غير اللائقة ، وإن كان المعتمد أقواهم لكنه واحد منهم ، يصيبه ما يصيبهم ؛ بل لأنه الأقوى فإن أنظار العدو تتجه إليه أولاً ! .

فمن أعظم الأحداث السياسية التي مرت به تلك المعركة التي دارت رحاها يوم العروبة ، بين المعتمد والمرابطين وأُمراء الأندلس من ناحية ، بين الفونس السادس ملك قشتالة من ناحية أخرى ، وعرفت في التاريخ بمعركة الزلاّقة . وقد تحدث في شعره عن صبره على أهوال تلك المعركة ، والمؤرخون يروون بلاءه ذلك في حديثه عن ابن أبي هاشم ، حين ذكره ورحى القتال دائرة" يقول :

أبا هاشم هشمتني الشفار فللّه صبـــري لـذاك الأوار

٤- الاستعطاف :

وللمعتمد شعر بعث به إلى أبيه يستعطفه عندما فشل في المهمة التي أوكلها إليه في الاستيلاء على بعض الحصون . ومنه هذه القصيدة الجميلة :

سكِّنْ فؤادك لا تذهب بــك الفكرُ ماذا يُعيد عليـــــــك البثُّ والحذرُ
وازجر جفونك ، لا ترض البكاء لها واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وإن يكن قدرٌ قد عـــــاق عن وطرٍ فلا مـردَّ لمـــا يـــأتي به الـقــدرُ
وإن تكن خيبةٌ في الدهر واحـــدةٌ فكم غزوتَ ومن أشيـــــاعك الظَفرُ
إن كنت في حيرة من جُرم مجتــرم فإن عــذرك في ظلمــائـــها قـــمرُ

٥- شعر المحنة والأسر :

وتجربة المعتمد مثال حيٍّ لمأساة كانت تتجدد يوماً بعد يوم على مدى سنوات سجنه ، وكان ذلك بمثابة عاصفة مدمرة أطاحت بعرش البهاء والعزَ الذي تربع عليه . وكان ذلك بعد نفيه إلى أغمات على يد يوسف بن تاشفين. ويظهر هذا في قوله واصفاً الحال التي صار إليها :

تبدَلتُ من عزَ ظلَ البنـود بذلِّ الحديـــد وثقل القيود
وكان حديدي سنانا ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
فقد صـار ذاك وذا أدهماً يعضُّ بساقيَّ عضَّ الأســود !

فلقد آلمه القيد ، وتغير الزمان عليه ، ونكست راياته الفينانة التي كان يستظَل بها ، وهو يعاني الآن ثقل القيود وذلَّ السجن والقيود الحديدية التي تحيط به وتثقل على جسده ، لا تثقل بثقلها المعدني فقط ، بل تثقل على نفسه وروحه بالذَل الذي غمسته فيه .

ولعلَ من أجمل قصائده التي تعبَر عن هذه الحال ، قصيدةٌ قالها عندما هوجمت أشبيلية ، فخرج مدافعاً عن نفسه وأهله وكان قد أشار عليه وزراؤه بالخضوع والاستعطاف :

لما تماسكت الدّموع وتنبَّه القلبُ الصديعْ
قالوا : الخضوعُ سياسةٌ فليبدُ منك لهم خُضُوعْ
وألذُّ من طعم الخضوعِ عَلَى فَمِي السُّم النقيعْ
إنْ تُسْتلبْ مني الدُّنا مُلكي وتُسْلِمُني الجمُوعْ
فالقَلبُ بين ضلوعهِ لم تُسْلم القَلبَ الضُّلوعْ
لم أسْتَلِبْ شَرفَ الطِّبا ع أيُسْلَبُ الشرفُ الرّفِيعْ
قد رُمتُ يوم نِزالهم ألاّ تحصِّنَني الدُّروعْ
وَبَرزتُ ليَس سِوى القمي صِ عَلى الحشا شَيءٌ دَفُوعْ
وبذلتُ نَفْسِي كي تَسِي لَ إذا يسيلُ بها النّجيعْ
أَجَلِي تأخَّر لم يكُن بِهَواي ذُلّي والخُضُوعْ
ما سِرتُ قط إلى القِتا لِ وكَان مِنْ أَمَلي الرّجُوعْ
شِيَمُ الأُلى أَنا مِنْهُمُ والأصْلُ تَتْبَعُهُ الفُرُوعْ

ومرّ عليه في موضع اعتقاله سرب قطا تمرح في الجو ، فتنكدَ مما هو فيه ، وما يقاسيه من أسره وقيده ، وفكر في بناته ، فقال :

بكيتُ إلى سرب القــطا إذ مررن بــي سوارح ، لا سجنٌ يعـــوقُ ولا كبــْلُ
ولم تكُ واللهُ المعيـــــذُ حســـادةً ولكن حنيـــناً أنَ شكلي لهــا شكلُ
فأسرحُ ، لا شملي صديعٌ ،ولا الحشا جميعٌ ولا عينـــــاي يُبكيـــهما ثُكلُ
هنيئـاً لهــا أُن لم يُفــرَقَ جمــعُهــا ولا ذاق منها البعــدَ من أهلـــها أهلُ
وأن لم تبِتْ مثلي تطيـــر قلوبُـــها إذا إهتزَ بابُ السجن أو صلصلَ القُفل
ألا عصم الله القطا في فراخـــــها فإن فراخي خانـــها المـــــاءُ والظَلُ

وفي أغمات ينتظر ابن عباد لحظة النهاية ، وهو حتى مع اقتراب هذه اللحظة فإنه يستبقها بأبيات لا تبدو فيها لوثة الجزع ، والندم لقبول الأسر وإنما يستذكر مآثر قبر يجمع أشتات جسد عرف المجد والعلم والفروسية وقبول قدر الله ورفض العبودية لغيره وإن كان مكبلاً بالأسر ، موسومًا بالعبودية ، لكنه يملك الإرادة لرفض هذا، وكفى بالمرء شجاعة أن يملك قلبه وقبره ! ، وقد طلب أن يُكتب على قبره هذه الأبيات التي تدلل على عشقه للحرية والإرادة وإن كان في قبره وحيدًا ساكنًا ، قال :

قبرَ الغريبِ ، سقَاك الرائحُ الغادي ... حــقــاً ظفرت بأشــلاء ابن عباد؟!
بالحلمِ بالعلمِ بالنُّعمى إذا اتصلتْ ... بالخِصب إن أجدبوا بالري للصَّادي
بالطاعنِ الضاربِ الرامي إذا اقتتلُوا ... بالموت أحمرَ بالضِّرغامة العــادي
بالدَّهر في نِقَمٍ بالبــحر في نِعَمٍ ... بالبدر في ظُلَمٍ بالصّدر في النادي
نعم هو الحق حاباني بــه قدرٌ ... من السّمــاء فوافــاني لميعادي
ولم أكن قبل ذاك النّعشِ أعــلمُه ... أن الجبَال تَهَــادَى فوق أعوادِ
كفَاك فارفُق بما استُودِعتَ من كرمٍ ... رواك كُل قَطُوب البــرق رعّــاد
يبكي أخاه الذي غيَّبتَ وابــلَهُ ... تحتَ الصفيح ، بدمعٍ رائحٍ غادي
حتى يجــودَك دمعُ الطّلِّ منهمراً ... من أعين الزُّهر لم تبخل بإسعــادِ
ولا تزل صلواتُ الله دائــمةً ... على دفيــنِك لا تُحصى بتعدادِ

ويُسكّن المعتمد بن عباد قبره ، ويُكتب عليه شعره ، ويموت الأمير الشاعر البطل أسيرا بعد حياة مركبة مليئة بالأفراح والأتراح ، والسعادة والأشواك ، والشعور بالحرية والغلبة ، وحياة اللعب والنشاط ثم القهر واستنظار الموت..!